***المحاضرة الثالثة***

***مفهوم الأدب وعلاقته بالمنهج***

*إن للمنهج علاقة وطيدة بمفهوم الأدب في بعديه اللغوي والاصطلاحي. ومن أجل بيان تلك العلاقة وفهما، لا بد من الوقوف على هذا المفهوم.*

***الأدب لغة***

*للفظة الأدب لغة - وما يُشتق منها- صلة بالمفهوم الاصطلاحي لهذه الكلمة، وهو ما سنبينه في حينه. وعليه؛ فقد وردت معاني اللفظة، في مختلف المعاجم، كما يلي:*

***الأدْب (بسكون الدال):*** *الدعاء إلى المأدَبة (بفتح الدال أو ضمها). و****الآدِب:*** *الداعي إليها. و****المأدبة:*** *الوليمة. ولهذه المعاني المادية - في لغتنا العربية- صلة بالمعاني النفسية السامية؛ لأن إقامة المآدب في عصر ما قبل الإسلام، حيث كانت البيئة العربية قاسية، ووسائل العيش الكريم فيها شبه منعدمة؛ فكان بعض الميسورين يقيمون الولائم لعابري السبيل ولمن تقطعت بهم السبل، ويوقدون النار الهائلة حتى يراها أولئك المحتاجون. ومن هنا جاء معنى كلمة* ***الأدَب (بفتح الدال):*** *الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة. و****أَدُب:*** *ظَرُف، أي اكتسب رياضة النفس؛ فصار صاحب أخلاق حسنة، بحيث إنها تصدر عنه بلا تكلف. و****الظرف:*** *الكياسة وحسن التعامل.* ***التأديب:*** *العقاب الخفيف (حتى يلتزم المؤدَّب بالأدَب).*

***الأدب في الاصطلاح***

*لمفهوم الأدب في الاصطلاح تعريفات شتى، منها ما هو جزئي، أي لا يعبر عن حقيقة الأدب التي تعكسها عناصره المختلفة، ومنها ما هو شامل، بمعنى أنه يترجم طبيعة الأدب بعناصره تلك. والقسمان هما:*

***القسم الأول****/ ونراها غير شافية ولا كافية؛ لأن أصحابها لم يتمكنوا في تعريفاتهم تلك، من إيراد كل العناصر التي كان بها الأدب أدبا والتي تترجمها نصوصه الشعرية والنثرية وتفرضها! .. فضلا عن أن بعض تلك التعريفات غير دقيق من حيث دلالتها اللغوية على الأدب تحديدا!*

*ومن أشهر هذه التعريفات، تلك التي دَرَجَتْ آذانُنا على سماعه من أساتذتنا، حينما كنا طلابا بالجامعة، أن* ***الأدب*** *في الاصطلاح* ***هو التعبير الجميل عن الحياة****. والحقيقة أن هذا التعريف يبدو للوهلة الأولى صحيحا؛ لأن الأدب تعبير عن قضايا الحياة المختلفة بطريقة جميلة، وأداته في ذلك هي اللغة الجميلة! .. ولكننا عندما نُمعن فيه فكرنا، نكتشف دون عناء أنه تعريف لا يختص بالأدب فحسب، بل ينطبق على فن الرسم أو العزف أيضا؛ فيقال مثلا: الرسم هو التعبير الجميل عن الحياة؛ فيقصد صاحبُه بالتعبير الجميل هنا الريشة التي يترجم بها تعبيره عن عناصر الحياة! .. أو يقال: الموسيقى هي التعبير الجميل عن الحياة؛ فينصرف ذهنُ صاحبِه بالتعبير عن الحياة إلى الأوتار التي تعكس رؤيته لمفردات الحياة!*

*ومن تعريفات هذا القسم قول بعضهم: "الأدب تَـخَـيُّـلٌ"[[1]](#footnote-2). ولكن صاحبه يستدرك بعد ذلك بقوله، أن هذا التعريف "ينطبق انطباقا خاصا على النثر السردي"[[2]](#footnote-3)، أي أنه لا يصلح مع الشعر!*

*ولصاحب التعريف السابق تعريف آخر للأدب، يرى فيه أن الأدب محاكاة فنية[[3]](#footnote-4). وغني عن التعليق على قصور هذا التعريف الذي يُذكِّر بما قلناه في التعليق على التعريف الأول أن الفنون عامة ينطبق عليها هذا التعريف! وحتى لو فرضنا جدلا أنه ينطبق على الأدب تحديدا؛ فإن العمل الأدبي قد تتحقق فيه الصياغة الفنية التي تجعل منه أدبا ولكنه يموت بعد ولادته، بسبب صدوره عن تجربة متكلَّـفة!*

***القسم الثاني/*** *وأعني به ذلك* ***المفهـوم******الجامـــــع الشامــل****، الذي يستعين بالتعريفات السابقة، ولكنـه* ***يُراعي طبيعــة الأدب وعناصــره الفنيـة والموضوعية معــاً، والتي***

***تنطق بها نصوصه****. وهو التعريف الذي أتبناه* ***وأقول فيه****:*

*"****الأدب علم من العلوم الإنسانية عامة، وفن من الفنون الجميلة خاصة، وسيلته اللغة الجميلة، يرتكز على التجارب الصادقة، ويسمو بالإنسان"****.*

*إن هذا المفهوم يقوم على خمسة معطيات، وكل منها يلخص سمة مركزية من سمات الأدب ويعكس جانبا من جوانب طبيعة الأدب، ومن هذه السمات ينبثق المنهج الذي ينبغي على الباحث الجاد أن يتبناه عندما يتأهب لتحليل هذا العمل الأدبي أو ذاك!*

*والمفهوم، الذي تتمثل فيه طبيعة الأدب بجنسيه الشعر والنثر، بعد هذا بحاجة إلى شرح لبيان حقيقة هذه الطبيعة من جهة وعلاقتها بالمنهج من جهة أخرى.*

***1-علم من العلوم الإنسانية:*** وهذه حقيقــة ليست بحاجــة إلى برهان. ولكن السـؤال *الذي يتبادر إلى الذهن - ويفرضه سياق ما ذكرناه سابقا- هو: أين تتجلى العلوم الإنسانية في الأدب؟ فنقول:*

*إن العلوم الإنسانية تتجلى في الأدب بجنسيه -الشعر والنثر- من خلال الموضوع الذي يتناوله هذا الأدب؛ فإن كان نفسيا تقاطع الأدب مع علم النفس، وإن كان اجتماعيا تلاقى مع علم الاجتماع، وإن كان تاريخيا اجتمع مع علم التاريخ، وإن كان فلسفيا توافق مع الفلسفة، وإن كان سياسيا تقابل مع علم السياسة! .. ولكن الأدب لا يكون أدبا بموضوعه النفسي أو الاجتماعي أو التاريخي أو الفلسفي أو السياسي، وإنما يكون أدبا لأنه فن قبل أن يكون علما! ولذلك قلنا في هذا المعطي: الأدب علم من العلوم الإنسانية* ***عامة****.*

***2- فن من الفنون الجميلة خاصة:*** *وهذه حقيقة لا يجادل في صحتها أحد؛ فالأدب فن ومن فنيته يستمد شخصيته - وموضوعه الذي وقفنا عليه قبل قليل يكمن في فنيته- وبفنيته هذه ينتمي إلى الفنون الجميلة. كما أن انتماءه إلى الفنون الجميلة أخص من انتسابه إلى العلوم الإنسانية، ولذلك قلنا عنه: وفن من الفنون الجميلة* ***خاصة****. ولكن هذا المعطى يثير تساؤلا وهو: أليس في الأدب ما يميزه عن تلك الفنون؟ وهنا يأتي المعطى الثالث؛ فيجيب:*

***3- وسيلته اللغة الجميلة:*** *ونعني باللغة الجميلة التي يميل إليها الأدباء عامة والشعراء منهم خاصة، لغة المجاز، وتسمى لغة البعد الثاني للغة. وذلك لأن اللغة تتشكل من بعدين، حقيقي ومجازي. وبهذه الوسيلة يصوغ الأديب المبدع أعماله الأدبية عامة والشعرية منها خاصة. وبهذه الوسيلة أيضا تتميز أعماله الأدبية عن العلوم الإنسانية - التي تُصاغ بالبعد الأول للغة- من جهة، وعن الفنون الجميلة من جهة ثانية.*

*ولأنَّ الأديب المبدع يمتلك من القدرة والخيال ما يساعده عل الكتابة؛ فقد يكتب في مناسبة يُطلب منه أن يكتب فيها؛ فهل ينجح هذا الذي كتبه رغم فنيته؟ .. وهنا يأتي المعطى الرابع؛ فيجيب:*

***4- يرتكز على التجارب الصادقة:*** *لا شك أن التجارب* ***الصادقة*** *التي يقوم عليها العمل الأدبي هي التي تكتب لهذا العمل النجاح والخلود. وأما العمل الأدبي الذي يستند إلى مناسبة من المناسبات، لم ينفعل بها الأديب انفعالا قويا وصادقا؛ فلن يُكتب له النجاح والخلود!*

*وبعد تلك المعطيات الأربعة، يأتي هذان السؤالان الهامان وهما: لماذا يكتب الأديب المبدع؟ والإجابة: لأنه خُلق لكي يكون أديبا مبدعا، ولذلك فهو يكتب! وهنا يخرج السؤال التالي من رحم الإجابة السابقة: لمن يكتب هذا الأديب المبدع؟ ويأتي المعطى الخامس؛ فيجيب:*

***5- يسمو بالإنسان:*** *صحيح**أن الأديب المبدع خُلق لكي يبدع. ولكنه في النهاية هو ابن بيئة إنسانية معينة، يتأثر بما فيها؛ فيبدع شعرا أو نثرا. وليس كائنا مقطوع الصلة عن تلك البيئة! فهو حين يبدع، لا يبدع من وحي تلك البيئة ثم يقرأه أبناؤها أيضا بعد ذلك! .. وهنا يفرض المعطى الخامس - لمفهوم الأدب الشامل في الاصطلاح- حضوره بقوة، لكي يحدد شرطا يُفترض أن يتحقق في العمل الأدبي وهو أن تسمو القيم المبثوثة فيه بالمتلقي. أي القيم النفسية أو الاجتماعية أو التاريخية أو الفلسفية أو السياسية، تبعا للمكون الموضوعي الذي تتناوله تلك التجربة. وقد يسأل سائل: لماذا هذا المعطى؟ وهل الأدب الذي لا يتحقق فيه هذا الشرط لا يعد أدبا؟ فنقول: إن تحقق هذا المعطى في الأدب، إلى جانب المعطيات الأربعة السابقة، يحقق الكمال للأدب؛ لأن قارئ هذا الأدب - ومبدعه قبل ذلك- هو "كائن متفرد" بتعبير (ألكسيس كاريل) -الذي ألح عليه وأكده في كتابه الرائع (الإنسان ذلك المجهول)!- وأما الأديب المبدع الذي لا يراعي هذا المعطى السامي في أدبه؛ فلا شك أنه ينطلق من رؤية خاطئة للحياة والإنسان والكون، كأن يرى الإنسان ابن القرد مثلا!*

*وقد وجدنا في عصرنا الحاضر، من الباحثين الكبار في ميدان الأدب وفي مختلف الحضارات والثقافات، من يعتنق هذا المعطى بقوة، ويعلن عنه بكل وضوح، ويدعو إليه دون كلل أو ملل! .. كـ (تزفيطان طودوروف) الذي أعلنها - قبل سنوات قليلة من وفاته- في سمع كل المبدعين ومُنَظِّرِي الأدب على مستوى المعمورة، قائلا - في ثنايا كتابه الرائع الموسوم بـ (الأدب في خطر)[[4]](#footnote-5) وكرر قوله هذا على الغلاف المقابل لعنوان الكتاب-:* ***"لو ساءلتُ نفسي اليوم لماذا أحب الأدب؛ فالجوابُ الذي******يتبادر عفوياً إلى ذهني هو: لأنه يعينني على أن أحيا****"!!! .. أي الحياة التي تليق بالإنسان لا بالحيوان!*

*وتجدر الإشارة في آخر حديثنا عن هذا المعطى إلى هاتين الملاحظتين الهامتين اللتين تصبان بكل وضوح فيه وهما:*

***الملاحظة الأولى****: أن المفهوم اللغوي الأخلاقي السامي للفظة الأدب، حاضر بوضوح في هذا المعطى الخامس لمفهوم الأدب في الاصطلاح.*

***الملاحظة الثانية****: أن انتماء الأدب المزدوج يتطلب لدى صاحب كل عقل حر ووجدان يقظ، هذه الوظيفة بالتحديد أي السمو بالإنسان. انتماء الأدب المزدوج - كما هو معلوم- : أنه علم من العلوم الإنسانية من جهة وفن من الفنون الجميلة من جهة ثانية. ولما كانت لتلك للعلوم الإنسانية وظائفُ ساميةٌ في واقع الإنسان وحياته؛ فكيف لا يكون للأدب، وهو علم من تلك العلوم، وظيفة سامية تمس هذا الإنسان؟! مع التذكير مرة أخرى أن وظيفة الأدب يتم نسجُها من قبل الأديب المبدع بطريقة فنية.. ثم إن للفنون الجميلة عند مؤرخيها وظيفةً سامية في كل الحضارات، وأن وظيفتها هي السمو بذوق الإنسان؛ فكيف لا يكون للأدب هذه الوظيفة وهو من أخص تلك الفنون؟!*

***علاقة المفهوم بالمنهج***

*وبعد كل ما سبق، يأتي هذا السؤال الهام: أين تكمن علاقة مفهوم الأدب السابق بالمنهج؟ .. فنقول:*

*إننا حين نتأمل معطيات المفهوم السابقة، نكتشف حقيقة هامة وهي أن الأدب يتشكل من مكونين كبيرين هما:*

* *المكون الموضوعي، الذي رأيناه حاضــرا بوضــوح من خلال حديثنا عــــن*

*المعطى الأول.*

* *والمكون الفني، الذي اتضح بقوة من خلال المعطى الثاني وتأكد من خلال المعطى الثالث.*

*وهنا تكمن علاقة المفهوم بالمنهج؛ وذلك أن كلا من المعطيين - الموضوعي والفني- بحاجة إلى طريقة تناسبه عند دراسته، ونعني بالطريقةِ: المنهج. وتوضيحا لهذا الكلام نقول:*

*إن دارس الأدب حينما يتأهب لدراسة عمل أدبي ما، أو تحليل نص من نصوص الأدب الشعرية أو النثرية، يجب أن يضع في الاعتبار ما يلي:*

***أولا/*** *ألا تغيب عنه حقيقةُ أن الأدب يتشكل من مكونـيْه الموضوعي والفني.*

***وثانيا****/ أنه إذا كان* ***يريد*** *أن ينتهي من تحليله هذا أو دراسته تلك، إلى إنجاز عمل* ***علمي جاد*** *يتسم بسمتين علميتين هما الشمول والدقة - ونعني بالشمول بأن يسلط الباحث الأضواء على كل زوايا الأدب بمكونيْه معا، والدقة بأن يتناول كل العناصر المتفرعة عن المكونين الموضوعي والفني بالتحليل المطلوب- فعليه أن يراعي في طريقة دراسته وتحليله المنهجَ المناسب لمكونيْ الأدب هذين؛ فيختار منهجين في الحد الأدنى؛ منهجا يتكفل بتحليل المكون الموضوعي كأن يكون نفسيا إذا كان الموضوع نفسيا أو تاريخيا إذا كان المضمون تاريخيا أو سياسيا...إلخ، ومنهجا فنيا يتصدى بالتحليل للمكون الفني. ويسمي المنهجيون هذا المنهج المناسب تمام المناسبة للأدب - والذي يتكون من منهجين فما فوق- بالمنهج التكاملي.*

*ومعلوم أن إخضاع الأدب لمنهج آخر غير المنهج التكاملي يعني التعمق في دراسة مكون بعينه للأدب وإهمال المكون الثاني.*

*وقد تنبه كثير من الباحثين إلى هذه الإشكالية التي واجهتهم حين تصدوا لتحليل النصوص الأدبية من منظور منهج غير المنهج التكاملي كالدكتور (شكري فيصل) الذي يقول في هذا الصدد: "لم نجد في النظريات والاتجاهات المختلفة التي تعاقبت على الأدب العربي، النظرية التي تفي بحاجة هذا الأدب وتُقنع في دَرْسِه وتاريخه؛ فقد كانت هذه النظريات جميعا، المفترضة والمطبقة، سواء في اللفت إلى نحوٍ من أنحاء الدراسة، والقصور عما عداه، والنظر إلى الأدب من جانب وإهمال الجوانب الأخرى"[[5]](#footnote-6).*

*ولاحظ الدكتور (أحمد كمال زكي) أن عددا مُهِمًّا من الباحثين والنقاد العرب في العصر الحديث، قد تعاملوا مع النصوص الأدبية بمنهجية لم تهتم بجانب فيها على حساب الجوانب الأخرى المكونة لها، بل سعوا إلى إضاءة كل جوانب تلك النصوص؛ وذلك بالاعتماد على أكثر من منهج لتحقيق هذه الغاية، ومن أولئك الباحثين والنقاد الذين ذكرهم الدكتور أحمد كمال زكي: (حسين المرصفي) و(طه حسيــن) و(أميـن الخولي) و(فاروق خورشيد) و(محمــد غنيمـي هــلال) و(سهيــــر*

*القلماوي) و(عبد القادر القط) و(صلاح عبد الصبور)[[6]](#footnote-7).*

*ومن الباحثين الغربيين الكبار الذين أوصوا بضرورة تبني منهجين - أي المنهج التكاملي- عند دراسة الأدب (تزفيطان طودوروف) الذي دعــا إلى هذا المنهـــج في كتابـه الأدب في خطر الذي أشرنا إليه سابقا. بل ويذهب بعيدا في التحذيــر من تبني المنهج البنيوي وحده - وهو صاحبه!- عند تحليل النصوص الأدبية؛ فيرى في ذلك خطرا على الأدب!!!*

*ولا يخفى أن تبنِّي هذا اللون من المناهج بالتحديد (أي المنهج التكاملي) من قبل كبار الباحثين العرب وبعض الباحثين الغربيين الموضوعيين، يرجع إلى أهميته وفائدته؛ لأنه - مثلما أشرت قبل قليل- يسلط أضواء الدراسة الكاشفة على كل زوايا النص الأدبي مهما صغرتْ فيدرسها ويشرِّحها ويشرَحها!*

1. ـ ........................ [↑](#footnote-ref-2)
2. ـ ......................... [↑](#footnote-ref-3)
3. ـ ........................... [↑](#footnote-ref-4)
4. ـ ............ [↑](#footnote-ref-5)
5. ـ ........................... [↑](#footnote-ref-6)
6. ـ ............................ [↑](#footnote-ref-7)